سبق علماء الغرب بما يزيد على أربعة قرون ونصف

ابن خلدون.. عبقرية وريادة

إعداد: رياض عواد

شهر رمضان المبارك هو شهر الفتوحات والأحداث الجسام في تاريخنا الإسلامي.. وهذه الحلقات نحاول خلالها إبراز أهم الأحداث التي وقعت في هذا الشهر الكريم تلك الأحداث كثيرة ومتنوعة، ما بين معارك إسلامية فاصلة وفتوحات وأحداث إسلامية مهمة تتعلق بمولد أو وفاة أعلام المسلمين، فنعيش خلال الحلقات القادمة مع بعض تلك الأحداث والفتوحات لنقتفي آثارها ونتلمس خطاها.

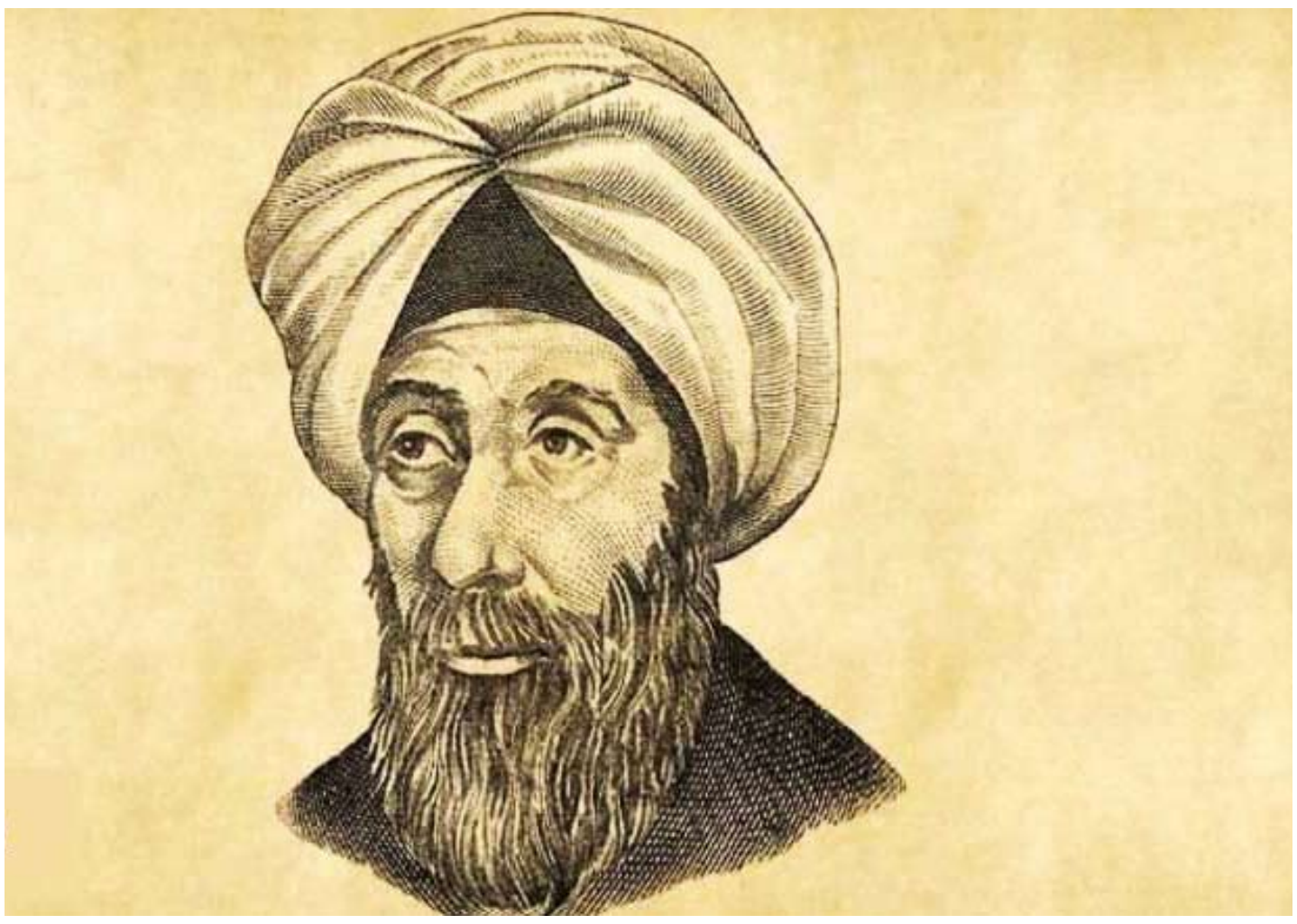

- ولد بتونس في رمضان سنة 732 للهجرة لأسرة عربية من أصول يمنية
- قدم فلسفة للتاريخ أنتجت عبقرية لم يكن لها مثيل في أي مكان أو زمان
- أول من وضع علم الاجتماع على أسسه الحديثة
- استقر في مصر نحو ربع قرن حتى توفي بها عام 1406م

احتفت الأوساط العلمية والفكرية في المنطقة والعالم بذكرى ميلاد العلامة عبد الرحمن بن خلدون الذي يعد من أعظم العقول التي أنتجتها الحضارة العربية الإسلامية، ومؤسس علم الاجتماع.

وتمتع ابن خلدون بمكانة علمية كبيرة من خلال تفرده بقراءة التاريخ حيث لم يكتف بإيراد الأخبار والوقائع بل حاول فهمها وتحليلها وإيجاد منهج لحركتها، وهو ما حدا بالبعض إلى القول إنه أعلن ولادة التاريخ بوصفه علما قائم الذات، كما أنه وضع أولى لبنات علم الاجتماع.

ولد المفكر عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر محمد بن الحسن بتونس في رمضان سنة 732 للهجرة الموافق 27مايو 1332م (وفق المؤرخين) لأسرة عربية من أصول يمنية، هاجرت من إشبيلية مع بداية سقوط الأندلس إلى تونس. درس القرآن الكريم وتفسيره والحديث والفقه واللغة وعلوما أخرى على يد عدد من علماء تونس، وتميز بعبقريته وسعة الاطلاع وشغفه بالمعرفة.

تجربة ثرية

عاش ابن خلدون حياته متنقلا بين عدد من الدول من بينها المغرب والأندلس والجزائر والحجاز والشام ومصر، فعمل أستاذا للفقه المالكي ثم قاضيا في القاهرة، وأرسل كسفير لعقد اتفاقات للتصالح بين الدول.

وقد ساعدته خبرته في الحياة السياسية والإدارية وفي القضاء، إلى جانب أسفاره الكثيرة، في كتاباته وملاحظاته عن التاريخ وكذلك في موضوعية وعلمية كتاباته.

ألف ابن خلدون عددا من الكتب الهامة، واحتل كتاب "العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر" الذي جاء في سبعة مجلدات بينها "المقدمة"، مكانة هامة.

ويقوم في هذا الكتاب بمعالجة الظواهر الاجتماعية التي يشير إليها في كتابه باسم "واقعات العمران البشري».

وكانت "مقدمته" من أكثر الأعمال التي أنجزها شهرة، وقد أنجزها عندما كان عمره ثلاثة وأربعين عاما، ودامت كتابتها أربع سنوات، ومن مؤلفاته الأخرى أيضا "رحلة ابن خلدون في المغرب والمشرق».

تعرّض ابن خلدون في المقدمة لمختلف الحضارات والممالك والقوى السياسية والمدن والقرى والفنون والعلوم، حلّل من خلالها مختلف الظواهر الأيديولوجية والسياسية والاقتصادية التي تسهم في البناء المتشابك للمجتمع الإنساني، وقد اعتمد في ذلك على مصادر متعددة.

ويعتبر المؤرخ البريطاني الشهير أرنولد توينبي في كتابه "دراسة التاريخ" أن ابن خلدون "قدم فلسفة للتاريخ تعتبر من دون شك من أعظم ما أنتجت عبقرية لم يكن لها مثيل في أي مكان أو زمان».

ريادة علمية

يرى ابن خلدون أن "الاجتماع الإنساني ضروري فالإنسان مدني بالطبع، وهو محتاج في تحصيل قوته.. ويستحيل أن تفي بذلك كله أو ببعضه قدرة الواحد، فلا بد من اجتماع القدر الكثير من أبناء جنسه ليحصل القوت له ولهم».

واعتبر ابن خلدون أول من وضع علم الاجتماع على أسسه الحديثة، حيث أوجد نظريات عن قوانين العمران والعصبية، وقدم ملاحظات دقيقة عن قيام الدول وعوامل استمرارها وسقوطها، وقد سبقت آراؤه وأفكاره ما توصل إليه الفيلسوف وعالم الاجتماع الفرنسي أوغست كونت (1798–1857)، وفق ما يراه بعض الدارسين.

وبنى ابن خلدون فلسفة خاصة في علم الاجتماع والتاريخ، وعمل على تجديد طريقة عرض أحداث التاريخ بتخليصها من الخرافات، حيث يرى أن التاريخ "في ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول، وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها».

وكان ابن خلدون بذلك أول من أخضع الظواهر الاجتماعية لمنهج علمي، توصل من خلاله إلى الكثير من الحقائق الثابتة أو النظريات، وهو ما اعتبر ريادة في مجال الدراسات الاجتماعية والتاريخية.

أثر فكري

استقر ابن خلدون في مصر ما يناهز ربع قرن حتى توفي بها عام 1406م، وتم دفنه بمقابر الصوفية بشمال القاهرة، لكنه ترك أثرا كبيرا في الفكر العربي والعالمي.

بقي العلامة لدى بعض الأدباء والشعراء المعاصرين رمزا تاريخيا للفكر المستنير يستحضرونه في رفضهم للواقع الاجتماعي والسياسي القائم، مثل الشاعر التونسي محمد الصغير أولاد أحمد الذي خاطب في مقطع شعري تمثال ابن خلدون الموجود في أهم شوارع العاصمة التونسية، مما تسبب في منع ديوان له من النشر في العهد البورقيبي وذلك بقوله:

يا ابن خلدون المدينة أضيق من خطاك..
ولكَم مررتُ ببرنسك الحديد
فساءني زمني..
فاخرجْ من الوثن الجديد،
واكتبْ إلى الوثن المقابل ما يليق بحجمه.

ويرى المؤرخ اللبناني فيليب حتّى أن "ابن خلدون يعتبر من أعظم الفلاسفة والمؤرخين الذين أنجبتهم الحضارة الإسلامية، وهو من أكبر ما أنجبت كل العصور والأزمنة».

أفكار ابن خلدون

شكلت دراسة الظاهرات الاجتماعية جزءاً كبيراً من مقدمة ابن خلدون، وفي ذات الوقت شكلت موضوع علم الاجتماع وقد أدرك وفهم ابن خلدون مدى اتساع نطاق الظواهر الاجتماعية وتنوعها، لذلك جاءت معالجاته لها متسمة بالتسلسل والمنطقية والمنهجية، حيث قد دارت أفكار ابن خلدون الأساسية حول السكان والعمران والطبقات والأحوال الاجتماعية.

ولقد كان تركيز ابن خلدون الأساسي ينصب على ظواهر العمران البشري خاصة ما يتعلق منها بالتطور الاجتماعي، حيث رأى إلى أن هذا التطور لا يتم مصادفة أو عشوائياً، ولكن له قوانين تحكمه وتفسره لذلك رأى ابن خلدون أن هناك ضرورة ملحة لدراسة هذه القوانين أو التوصل إليها، وهذا يفرض من وجهة نظرة دراسة المجتمع البشري في ذاته، وهذه الدراسة تشكل أيضاً موضوع علم مستقل هو علم الاجتماع، ومعنى ذلك أن وظيفة علم الاجتماع هي الكشف عن القوانين التي تحكم الظواهر الاجتماعية في حدوثها وتطورها وأدائها لوظائفها.

وحينما شرع ابن خلدون في وصف وتحديد المنهج الملائم والمناسب لدراسة الظواهر الاجتماعية، بدأ بتوجيه النقد إلى الطرق المنهجية التي استخدمها السابقون عليه، وأشار إلى أنه ينفرد بقواعد تختلف عنها، ولم يسبقه إليها أحد، فهاجم ابن خلدون الطريقة التاريخية الخالصة التي ترتكز على الوصف السطحي المحدود للظواهر الاجتماعية، دون محاولة استخلاص شيء عن القوانين التي تحكمها، وكثيراً ما هاجم المؤرخين لابتعادهم في بعض الحالات عن استخدام الطرق العقلية والمنطقية في العرض التاريخي، وعدم نزاهتهم في هذا العرض في كثير من الأحيان.

كذلك هاجم ابن خلدون الطريقة التي يتبعها علماء الأخلاق والسياسة في تركزهم على إبراز محاسن معتقدات الأمة وتقاليدها، وأخلاقياتها، وأيضاً حث الناس على التمسك بها، هذا فضلاً عن هجومه على المناطق أو الطرق المثالية التي كان أفلاطون وأرسطو والفارابي من أبرز أنصارها.

فقد تناول ابن خلدون الظواهر الاجتماعية أو وقائع العمران البشري التي أكد معظم العلماء والدارسين أن أفكار ابن خلدون في هذا المجال تمثل البدايات المبكرة لعلم الاجتماع، سابقاً علماء الغرب بما يزيد على أربعة قرون ونصف.